

عن التأثير بها والارتواء من معيها.

إذن؛ الإسلام ثورة في المفاهيم والمعتقدات، وهو ثورة في المعاني والقيم والمعايير، وأخيراً هو ثورة في السلوك والخلق وأسلوب التعامل مع كل مظاهر الحياة.

ومن هنا صحَّ أن نُعبِّر عن الإسلام بأنه ثورة العلم على الجهل، وثورة القانون والنظم على الفوضى والانسحاب، كما أنه ثورة الروح المتعالية على عالم المادة الذي يضيق عن استيعاب آفاق الروح وسمو المعنى.

وتكفي قراءة سريعة لنصوص الكتاب الإلهي الخالد، أعني (القرآن الكريم) الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ليقف القارئ على أنه كَلِّه هدىً ونور وعلم ومعرفة، تُفاض على البشرية على الدوام، فهو الكريم حقاً وبكل ما للكريم من آفاق وأبعاد ودرجات.

### التفقه منطق الشريعة

وإذا كان القرآن الكريم<sup>(١)</sup>، كتاب الهداية<sup>(٢)</sup> والنور<sup>(٣)</sup> الخالد<sup>(٤)</sup>، وكتاب العلم والمعرفة، فما هو دور الإنسان تجاه هذا المصدر الإلهي والينبوع الثرّ؟! وهل هناك موقف للإنسان سوى الاستهداء به والاستنطاق لنصوصه؟

وهل الاستنطاق لنصوصه شيء غير

## القرآن الكريم ومبدأ التفقه في الدين

### السيد منذر الحكيم

الإسلام ثورة العلم على الجهل



الإسلام ثورة ثقافية قبل أن يكون ثورة في السياسة والحكم أو الاقتصاد والاجتماع أو غيرها من شؤون الحياة. ولا تعرف البشرية ثورة ثقافية أعظم من الثورة التي فجرها الإسلام حين بزغ في ربوع مكة وانتشر بسرعة مدهشة في شرق الأرض وغربها وأوجد حضارةً كبرى لا زالت ترفد الغرب والشرق بعطائها وثمارها في أكثر مجالات العلم والمعرفة.. لأنه ثورة في العمق والمحتوى قبل أن يكون ثورة في الأشكال والأطر. وهو ثورة في أصول الثقافة البشرية بدءاً بطرق اكتسابها وانتهاءً بتطبيقها وترجمتها في جميع مجالات الحياة التي تبتني على تلك الأصول والتي لا يشذ مجال

الفهم؟ وهل الفهم الدقيق والصحيح شيء غير التفقه لحديثه وآياته ونصوصه؟

وقد نص القرآن الكريم على الذين لا يتعاملون مع آياته على أساس الفهم الصحيح والدقيق أي التفقه فيه قائلاً:

﴿قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾<sup>(٥)</sup>.

﴿ولكن المنافقين لا يفقهون﴾<sup>(٦)</sup>.

﴿طبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾<sup>(٧)</sup>.

﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾<sup>(٨)</sup>.

﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه﴾<sup>(٩)</sup>.

بل اعتبر القرآن الكريم أن الهدف من تصريف آياته وتفصيلها هو أن يتفقه فيها مخاطبوه قائلاً:

﴿انظر كيف نصرّف الآيات لهم ليفقهون﴾<sup>(١٠)</sup>.

﴿قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾<sup>(١١)</sup>.

وقال عن لسان كلمه موسى عليه السلام:

﴿رب اشرح لي صدري \* ويسر لي أمري \*

واحلل عقدة من لساني \* يفقهوا قولي﴾<sup>(١٢)</sup>.

إذن إنما تتحقق أغراض التشريع وتتحقق الهداية الإلهية للإنسان إذا كان الإنسان يتعامل مع آيات الله ونصوصه ونصوص رسله على أساس الفهم والفقه لكتاب الله وسنة نبيه.

وهناك ارتباط وثيق بين التعقل والتفقه إن لم يكونا بمعنى واحد، حيث نلاحظ تشابهاً

□ اعتبر القرآن الكريم أن الهدف من تصريف آياته وتفصيلها هو أن يتفقه فيها مخاطبوه.

□ إنما تتحقق أغراض التشريع وتتحقق الهداية الإلهية للإنسان إذا كان الإنسان يتعامل مع آيات الله ونصوصه ونصوص رسله على أساس الفهم والفقه لكتاب الله وسنة نبيه.

□ هناك ارتباط وثيق بين التعقل والتفقه إن لم يكونا بمعنى واحد.

□ التعقل هدف أعلى من الفقه والفهم. فالتفقه هو المرحلة الأولى والأهم لاستجلاء النصوص واستنطاقها والاستهداء بها.

ولتعبئ المؤمنين وتزفهم إلى سوح الجهاد ليقتلوا جذور الشرك والإلحاد وليدكوا قلاع الكفر والنفاق .

وهنا لم يتوقع المؤمنون شيئاً سوى تكثيف هذه التعبئة للجهاد من أجل النفر إلى ساحات القتال التي كانت تتطلب أهداف الشريعة خوضها.. وإذا بالآية المباركة تنزل لتقرّ مبدأً أدياً يرفد الشريعة والمجتمع المؤمن بالبقاء والعطاء، ويفتح آفاق التطور والكمال ويخترق برائن الجمود والتخلف والانغلاق على مرحلة معينة من مراحل الكمال .

إنها الآية الثانية والعشرون بعد المئة من سورة التوبة وهذا نصّها:

- ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ .
- ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ .
- ﴿ليستفقهوا في الدين﴾ .
- ﴿ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾ .
- ﴿لعلهم يحذرون﴾ .

### معالم التفقه في الدين

وهذه الآية المباركة تقرّر:  
أولاً: أن التفقه في الدين يحتاج إلى النفر والتعبئة على غرار النفر لما يسمى بالجهاد، بل كلاهما جهاد والتوجه لكل منهما يُعدّ نَفراً على حدّ سواء .

وثانياً: أن هذا النفر للتفقه في الدين إن لم يتقدّم على النفر للجهاد بالسلاح فهو لا يتأخر

كبيراً بين سياق الآيات والأدوات التي تستعمل في كل منهما والأهداف المترتبة على كل منهما والمقدمات التي يترتب كل منهما عليها .

قال تعالى: ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون﴾ (١٣) .

﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾ (١٤) .  
إذن الهدف من تبين الآيات هو التعقل وقد لاحظنا أن الهدف من تفصيل الآيات وتصريفها هو التفقه .

نعم نسب القرآن الكريم الفقه إلى القول والحديث والتسييح بينما لا يختص التعقل بذلك، وقد يلاحظ أيضاً للتفرقة بينهما بأن التعقل يتقوم بنوع من الموازنة والقياس والاستنتاج بينما يتقدّم الفهم والفقه على الموازنة والاستنتاج .

ومن هنا كان التعقل هدفاً أعلى من الفقه والفهم، وكان التفقه هو المرحلة الأولى والأهم لاستجلاء النصوص واستنتاجها والاستهداء بها، من أجل اكتساب القدرة على الموازنة والتقويم والاستنتاج النظري لتحقيق أرضية العمل والسير على أساس نظم الشريعة وقوانينها .

### مبدأ التفقه في الدين

لقد نزلت سورة براءة (التوبة) لترسم معالم المجتمع المسلم المجاهد في سبيل الله

عنه.

بل لعلّ استثناء طائفة من المؤمنين والمسلمين في أوج التعبئة للجهاد بالسلاح لدليل على أهمية هذا النفر وضرورته إذا قيس بالنفر للجهاد المسلح، وتدل أدوات الحثّ والحضّ مثل: ﴿لولا﴾ ومثل لام الأمر الداخلة على التفقه مرّةً وعلى أهداف التفقه مرّةً ثانية.. على مدى أهمية هذا التفقه.

وثالثاً: أن التفقه بشكل عام هو مبدأ أساسي يتحقق به أهداف الشريعة في المجتمع البشري، بينما خصّصت الآية التفقه هنا (بالدين) ونصّت على أهدافه وآثاره.

ورابعاً: أن سعة دائرة المفهوم الذي أراده القرآن من مصطلح الدين هو الذي يعيّن سعة دائرة التفقه هذا، وأنه لا يقتصر على ما هو المتداول عند بعض الشرائح من حصره بالأحكام العملية الفرعية، حتى أصبحت دروس الفقه وأصوله بالمعنى الخاص والمعروف هو التفقه في الدين؛ ودراسة ما سواه مما يرتبط بفهم الشريعة من العقيدة والكلام والفلسفة والتاريخ وما شاكلها من مجالات المعرفة الإسلامية على هامش التفقه في الدين إن لم يكن مُبعداً عن التفقه في الدين!

وخامساً: ولتلا ينحرف التفقه في الدين عن مساره الصحيح صرّحت الآية بهدفين مترتبين ومقصدين أساسيين ليكونا معلماً أن

□ التفقه في الدين يحتاج إلى النفر والتعبئة على غرار النفر لما يسمى بالجهاد، بل كلاهما جهاد.

□ إن هذا النفر للتفقه في الدين إن لم يتقدّم على النفر للجهاد بالسلاح فهو لا يتأخر عنه.

□ إن التفقه بشكل عام هو مبدأ أساسي يتحقق به أهداف الشريعة في المجتمع البشري.

□ كلما اتسعت دائرة المؤمنين في العالم الإنساني اتسعت دائرة النشاط التعليمي والتربوي للحوزات العلمية التي تقوم بواجب إيجاد المتفقيين في الدين.

□ الحوزات العالمية ضرورة إسلامية حضارية. كما أن استيعاب الحوزة الأم لجميع الحوزات العالمية ضرورة حضارية أخرى تُثقل العبء على كاهل المهتمين بشؤون التربية والتعليم لا محالة.

للتفقه المطلوب ومناراً للأساليب التي قد تُتبع وتتطور بتطور العصور.

فالإنذار بالمفهوم القرآني هو الوظيفة التي يجب أن يوظف الأئمة من أجلها وأن يكون هذا الإنذار بمستوى من التأثير ليحقق حالة الحذر المطلوب وهو الحذر من عواقب السوء والتردي في طريق الشقاء الذي قد تصاب به المجتمعات المتكسبة والجماعات المتحجرة أو الراكدة على مسيرة آبائها وأسلافها من دون أن تفكر في سلامة طريقها أو اختزال المسافة التي تقطعها وهي تعيش عصر السرعة الفائقة في كل مجال.

وسادساً: أن حالة الحذر والترقب هي مؤثر لهم على حساسية المجتمع وحيويته ونشاطه وقد جاء بصيغة الفعل المضارع الذي يُراد منه أن يعكس الحالة السائدة والمستمرة للمجتمع.

ومن هنا كان التفقه المطلوب هو الذي يقوم بأداء هذا الدور ويحقق هذه الحالة الخاصة من الحساسية والنشاط والحيوية للمجتمع الإيماني.

وسابعاً: كلما اتسعت دائرة المؤمنين في العالم الإنساني اتسعت دائرة النشاط التعليمي والتربوي للحوزات العلمية التي تقوم بواجب إيجاد المتفقيين في الدين بل تعين لنا الآية المباركة المستوى المطلوب من التفقه وتؤثر هاتان الملاحظتان في البرمجة

□ إن التفقه في الدين هو المبدأ القرآني الذي  
يمثّل حيوية الإسلام وديمومته وقدرته على  
البقاء والحضور الفاعل في الساحة العالمية  
على مدى العصور. وهو بدوره يشجب كل  
محاولات حصر الاجتهاد وإلغاء كل أشكال  
الدعوة إلى الجمود والركود العلمي والفقهي.

في مختلف بقاع الأرض حيث الأمة  
المسلمة، وكل المواطن التي تقطن فيها  
الجماعات المؤمنة.

إن التفقه في الدين هو المبدأ القرآني الذي  
يمثّل حيوية الإسلام وديمومته وقدرته على  
البقاء والحضور الفاعل في الساحة العالمية  
على مدى العصور. وهو بدوره يشجب كل  
محاولات حصر الاجتهاد وإلغاء كل أشكال  
الدعوة إلى الجمود والركود العلمي والفقهي  
بشكل سافر أو من وراء حجاب، كما يدين  
كل تطرف أو إفراط وتفريط على حساب  
الدين وباسم الدين، ويدعو إلى فتح باب  
الحوار والنقد العلمي البناء لفهم الدين كما  
يجب ولتطبيق مقاصده وأهدافه وتحقيقها بما  
يتناسب وتطور العصور في مختلف البقاع  
والأمكنة والظروف.

الدراسية والتعليمية في حوزاتنا العلمية  
لمختلف الجاليات الإسلامية.

ومن هنا كانت الحوزات العالمية ضرورة  
إسلامية حضارية كما أن استيعاب الحوزة الأم  
لجميع الحوزات العالمية التي تُعنى بتخريج  
الفقهاء الأكفاء القادرين على تحقيق أهداف  
الآية المباركة وتحقيق مقاصد الشريعة  
الإسلامية ضرورة حضارية أخرى تُثقل  
العبء على كاهل المهتمين بشؤون التربية  
والتعليم لا محالة، وتتطلب التوجه التام إلى  
جميع الآفاق العلمية والروحية في العالم  
الإسلامي بشكل مستمر.

وهكذا تأخذ الآية المباركة بأيدينا إلى  
آفاق جديدة في أساليب التربية والتعليم  
والمناهج والدراسة وأساليب التعامل مع  
المتعلمين والمعلمين وإدارة المعاهد العلمية

الفقهاء على مرّ العصور حيث حملوا مشاعل الهداية والنور بيد والسلاح بيد أخرى دفاعاً عن حريم الشريعة الإسلامية والرسالة الخالدة، وحافظوا على استمرار الوعي الرسالي للأمة ولو في جملة من شرائحها باستمرار.

وتمخّضت هذه الجهود المباركة عن جمهورية إسلامية تفيض على العالم ما حققت مدرسة أهل البيت العلمية والتربوية من رقي ثقافي وتقدّم علمي في شتّى مجالات العلم والمعرفة ولا زالت تصبو نحو درجات أعلى من الرقي والكمال.

وقد تصدّى الرسول القائد وأهل بيته الطاهرون لغرس هذه الشجرة المباركة وتجذير هذا الخط المبدئي الذي يضمن للشريعة صيانتها من عبث العابثين. وقد أثمرت جهودهم الجبّارة لاختراق كل الأوضاع الجاهلية التي أراد أعداء الإسلام القدامى أن يخضعوا إليها الغرس الإسلامي الجديد بعد عصر الرسول صلّى الله عليه وآله.

فكانت مدرسة أهل البيت عليهم السلام هي المدرسة العملاقة التي تحدّث الزمن وتحديث كل الأساليب الخبيثة التي كانت سافرة تارة ومبطنّة تارة أخرى، وأنشأت أجيالاً من

## الهوامش

- |                          |                   |
|--------------------------|-------------------|
| (١) الواقعة: ٧٧.         | (٨) الأعراف: ١٧٩. |
| (٢) آل عمران: ١٣٨.       | (٩) الأنعام: ٢٥.  |
| (٣) المائدة: ١٥.         | (١٠) الأنعام: ٦٥. |
| (٤) فصلت: ٤٢ و الحجر: ٩. | (١١) الأنعام: ٩٨. |
| (٥) النساء: ٧٨.          | (١٢) طه: ٢٥-٢٨.   |
| (٦) المنافقون: ٧.        | (١٣) الروم: ٢٨.   |
| (٧) التوبة: ٨٧.          | (١٤) البقرة: ٢٤٢. |